قصة

موبي ديك

أو الحوت الأبيض (في سطور)

للكاتب الأمريكي « هرمان ملفيل »

١٨١٩ — ١٨٩١

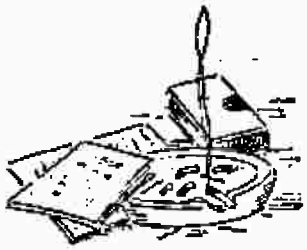

للأستاذ مبارك ابراهيم

ولد بمدينة نيويورك . وكان والده تاجراً مستوراً . فلما بلغ الثالثة عشرة مات أبوه . وكان قد أفلس . فاشتغل المترجم له نوتيًّا ، ثمَّ كاتباً ، ثمَّ معلماً .

وفي عام ١٨٤١ عمل نوتيًّا على ظهر مركب تصيد الحوت . وكان يوماً على ظهر إحدى السفن ثمَّ تركَ السفينة . ونزل بين قوم من آكلي لحوم البشر . وأقام بينهم أربعة اشهر . ثمَّ « عاد إلى أهله على ظهر إحدى صائدات الحوت » ثمَّ على إحدى البوارج التابعة للبحرية الأمريكية .

وألفى نفسه يوماً وقد بات بلا عمل فكتب قصة ضمنها وصف مخاطراته . وقد دفعت به هذه القصة إلى أن يتخذ الكتابة مهنة له . ثمَّ أدركه الفشل بعد حين . فقضى العشرين سنة الأخيرة من حياته مفتشاً للمكوس في مدينة نيويورك . حيث مات في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٨٩١ .

وقصة « موبي ديك » هذه ألفها الكاتب . ثمَّ نشرها عام ١٨٥١ . وسمَّاها باسم حوت هائل مفترس كان معروفاً بهذا الاسم . وقد هوجم هذا الحوت غير مرة . فكانت الغلبة له في كل مرَّة .

وحدث لضابط من ضباط البحرية اسمه (أهاب) أن فقد ساقه في عراكه مع هذا الحوت الوحشي فأقسم ليقتلنَّه أو ليموتنَّ دونه .

والقصة تبيِّن لنا كيف برَّ الضابط بقسمه وأوفى بعهده . ولم يكتف الكاتب بسرد أنباء المخاطرات التي يتعرض لمثارها مطاردو الحيتان . ولكنه جاء بوصف لكل نوع من أنواع الحيتان من حيث الخلق والعادات . ومن حيث القيمة التجارية . ثمَّ هو يعطي قارىء قصته وصفاً شاملاً صادقاً لأخلاق وعادات أصحاب سفن الصيد وربانيتها وملاحيها .

والحوت (موبي ديك) لم يقتل إلاّ بعد معركة دامت ثلاثة أيام غرقت فيها السفينة التي أعدت لقتاله وغرق معها قواربها .

ولقصة (موبي ديك) قيمة في عالم الأدب تزداد على مرّ الأيام فائدة من حيث أنها أوفى كتاب ألف في تجارة الحيتان . وفي الصناعات التي تتصل بها . وفي المخاطرات التي يتعرّض لها صائدوها . في وقت كانت الشجاعة فيه تقاس بالقوّة الفردية ، والمهارة الشخصية . وفي زمن كان لا مفرّ لصائد الحوت من أن يلقاه في قوارب صغيرة . وعلى مسافات قصيرة . وذلك قبل أن تعرف القنابل التي تقذف من بعيد . وقبل أن تعرف الزوارق والبوارج التجارية بما جهزت به من عدد وآلات حتى صارت اليوم مصايدة الحيتان عملاً مألوفاً سهلاً

والقصة كذلك تصف أبدع وصف وأصدقه ذلك الشعور الذي يحس به رجال البحر الذين يتخذون من بحار العالم ومحيطاته مغدًى لهم ومتجراً .

* * *

جاء في القرآن الكريم : (فاصبر لحكم ربك . ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) الآية ٤٨ من (سورة القلم) رقم ٦٨ .

وجاء في سفر يونان من العهد القديم : (وأمر الرب الحوت فقذف يونان الى البر) .

* * *

وقال الكاتب : —

لم يكن معي إلاّ قليل من المال فخطر ببالي أن أركب البحر . وكنت ، وأنا أرى صورة وجهي في صفحة الأوقيانوس . أحاول أن أمد لها يداً . مثلي في ذلك مثل النرجس الذي تقول عنه الأسطورة الأغريقية إنه كان فتىً جميل المحيّا ، رأى صورة وجهه منعكسة في مجرى ماء صافٍ فحاول أن يمسك بها فسقط في الماء وابتلعه اليم وجاء المذارى من حوريات الماء لينتشلنّ الجثة فوجدنّ مكانها زهرة حملها باسمه .

وقد طافت بخاطري فكرة ، ملكت عليّ عقلي . عن « الحوت الكبير » وألمّ بي شوق ملح إلى الظفر بالأشياء البعيدة المنال . فأجمعت أمري على أن أرتحل رحلة أصيد فيها الحيتان

وفي ليلة من ليالي دسمبر بدأت رحلتي فنزلت في نزل أعدّ لامثالي من الصيادين . وكان عليّ أن أنام في سرير واحد مع صياد من الوثنيين . مفتول العضل . وقد امتلأ بالوشم جسمه . وكان رجلاً مهذباً قليل الكلام . وهناك في معبد قريب سمعنا في صبيحة اليوم

للتالي أحد رجال الدين يحدثنا عن نبي الله « يونس » . وفي أصيل ذلك اليوم أخذت ورفيقي ندخن غليوننا معاً . ثم تاهني ماله ، وأعنته أنا على مبادته التي كان يؤديها .

ثم ذهبنا الى البحر معاً فركبنا سفينة صيد قديمة ، قد طافت بالمحيطات الأربعة . وهي تتخذ من أنياب الحيتان « حلية » لجوانبها . ولم نكن قد رأينا ربان المركب من قبل . ولكننا قد انبئنا أنه في آخر رحلة له قد فقد ساقه التي طوّح بها حوت هائل . وأن الربان قد أصبح منذ ذلك الحين مكروب النفس ضيق الصدر .

وبعد أيام رأيناه على ظهر السفينة . وسمعناه يقول إن الحوت الذي أطلق عليه اسم (موبي ديك) هو ذلك الحوت المشئوم الذي صيرني مبتور الساق . وإني لمطارده . ومورده موارد التلف ، وإني لمذيقه عذاب السعير . قبل أن أخلي سبيله . فقال البحارة أجمعين آمين ! وشذ عنهم واحد اسمه (ستار بك) إذ قال الربان : إني لست بالمرار ؟ ولكني جئت هنا لاصطاد الحيتان لا لأنتقم من حيوان أبكم !

فقال (أهاب) مناجياً نفسه : كل ما عقدت العزم على فعله فاني لا بدّ فاعله . إنهم يظنونني مجنوناً . ولكني لست مجنوناً حسب إنما أنا المجنون بعينه قد جنّ جنونه...

وكان ذلك اليوم الذي رأينا فيه أول مدرسة لصيد الحيتان . يوماً يخنق الانفاس هواؤه الحار الرطب . ولما نادى (أهاب) بانزال القوارب . رأينا خمسة من الرجال لم يكن أحد قد رآهم من قبل وهم ملاحو قاربه الخاص الذي أنزله الى البحر خفية .

وكان زعيم أولئك الرجال نجار « اسمه (فيض الله) وهو رجل طويل القامة يرتدي ملابس أهل الصين . ويجلل الشيب رأسه حتى ليحسبه الرائي لاول مرة عمامة .

وكنت أنا ساعتئذٍ في قارب (ستاربك) الذي كاد يغرقه حوت من الحيتان . وظلت العاصفة تدوي حولنا طوال الليل قبل أن تعثر بنا السفينة .

ولما كنت أعرف أن مثل هذه الحوادث من مستلزمات مثل هذه الحياة ، فقد أعددت نفسي للموت وكتبت وصيتي .

وعلى الرغم من هذا كله فاننا لم نظفر بشيء من الصيد . ثم مرنا حول « رأس الرجاء الصالح » فاذا بنا نلتقي بمركب آخر للصيد . . ووقف (أهاب) يسأل رجال السفينة : هل

رأوا حوتاً أبيض ، ثم اتخذنا سبيلنا في البحر تتبعنا « حيتان العنبر » . ولم نلتق بحيتان التي تقتني آثارها ، والتي رأيناها في المحيط الهندي . في هذا المحيط قتل (ستب) أول حوت ظفرنا به . ثم وقفنا لنأخذ وقودنا من النفط ومن منّ القياطس . ثم التقينا بمركب الصيد (جيرينوم) الذي قتل الحوت (موبي ديك) ربانها الثاني .

ثم دلفنا إلى بحار الصين ، ثم إلى المحيط الهادي حيث أحاط بركبنا جماعة من الحيتان التي يخرج العنبر من بطونها . فظفرنا بقتل واحد منها .

وبعد بضعة أيام قفز إلى البحر صبي زنجي كان حوت من الحيتان قد قذف به إلى قاع اليم ، وقد نجا الصبي من الغرق . ولكن لم ينج عقله من لوثة الخبل .

ثم التقينا بسفينة انجليزية اسمها (صمويل أندربي) فحيياها وتحدث (أهاب) إلى ربانها الذي كان يحمل ذراعاً صنعت من أنياب الحوت ، وهو في هذا ترب (أهاب) الذي فقد ساقه . ثم فقد (أهاب) ساقه العاجية وأمر بصنع أخرى مكانها . وأصابت الحمى أحد زملائنا فكاد يهلك ، فأعددنا له الصندوق والكفن . فلما برىء من مرضه اتخذنا من نعشه صندوقاً للسفينة .

وطفق (أهاب) يوماً بعد شهر كبيراً ليصيد به الحوت الأبيض . وجعل من شعرات موسى الحلاقة سناناً لذلك الشص . وفي إحدى الليالي كان (أهاب) يتخذ مجلسه إلى جانب حوت قد اصطاده فسمع الرجل الصيني « فيض الله » يتلو الشهادة التالية : قبل أن يموت (أهاب) لا بدّ له من أن يشهد نعشين يسيران فوق أمواج البحر ، ثم استطرد يقول : إنّ (فيض الله) صدق حتفه قبل (أهاب) وأن هذا سوف يقتله « الخبيث » !

وأخيراً جاء اليوم الذي نتوجّه فيه إلى ناحية خط الاستواء . وفي ذلك اليوم أعلن (أهاب) — بعد أن نظر في خريطته — أنه سيقود السفينة مسترشداً بالحدّ والحساب . وكذلك بوساطة الأبرة

وفي مساء ذلك اليوم أحاطت بالسفينة عاصفة مكهربة . وفقد الربان في اليوم التالي فألفى الأبر كلها قد انقلبت . وهلك أول بحار صعد إلى أعلى الشراع . وسقط في اليمّ فطاق النجاة الذي أنزل خلفه . وجاء (كريكوج) لصندوق نعشه ليحل محله .

ثم التقت السفينة بسفينة أخرى مات ابن ربانها في اليوم السابق . بعد أن طاردت « موبي ديك » أو « الحوت الأبيض » مطاردة عنيفة . ثم جاءت سفينة أخرى فألقى ربانها بدفن خامس بحار ممن قتلوا في معاركهم مع (موبي ديك) في الليلة السابقة .

صفا الجو في اليوم الثالي . ورق الهواء . فأخذ (أهاب) يتحدث الى (ستار باك) عن السنين الأربعين التي قضاها فوق متون البحار . ثم طلع فجر يوم جديد . وصرخ (أهاب) يصرخ ويقول : هنا يضرب الحوت ضرباته ! إنه سناماً كأنه جبل الثلج ! إنه (موبي ديك) !

وتعاونت القوارب كلها واجتمعت لمطاردته . ودوى صوت (موبي ديك) وظهر فوق وجه الماء . ثم نزل — وكأن ذلك بوحي من غريزته الفطري — الى ما تحت الماء . الذي يحمل (أهاب) واستلقى على ظهره . وكأنه سمكة من سمك (القرش) . وشحذ أسنانه . وأمسك جوانب القارب بين أنيابه ، وهزه كما تهز الهرة فأراً . فسقط (أهاب) في البحر . وسارت السفينة فوق حطام القارب لتجتنب طريق الحوت . وهجرت القوارب الأخرى من التصدي له . ثم عدن السير في حمى السفينة . وتجدد القتال في صباح اليوم التالي . وقتل (فيض الله) من بين البحارة الذين اشتركوا في المعركة .

وفي أصيل اليوم الثالث رؤي الحوت مرة أخرى . وأصر (أهاب) على أن يستمر في مصاولته . ونزلت إلى البحر قوارب جديدة . فلما رفع (موبي ديك) رأسه بدا وكأنه عفريت من الجن ، ومرة أخرى ابتلع اليم القوارب . وسمعت صرخة مدوية ذلك أن جثة (فيض الله) قد رؤيت تتمثر بين الحبال التي علقت بالحوت .

واستمر (أهاب) في مطاردته للحوت الذي أضناه التعب . وأغمد سنان حرابه في جسمه . فانطلق الحوت وقد ملكه الغضب وانقض على السفينة فأحدث فيها فجوة . فنظر (أهاب) الى السفينة الغارقة . وطعن الحوت طعنة قاتلة وهو يصرخ ويقول :

باسم النكره المتأصل بيننا ألفظ آخر أنفاسي فوق جثمانك ! ثم أصابت الحوت ضربة أخرى كانت هي القاضية . وذلك بعد أن أغرق السفينة وربانها وبحارتها . . ولبثت حولي فلم أجد من أخطأه الموت غيري .

وبعد يومين انتشلتني من بين الأمواج السفينة (راشيل) ...

(عن الانجليزية)